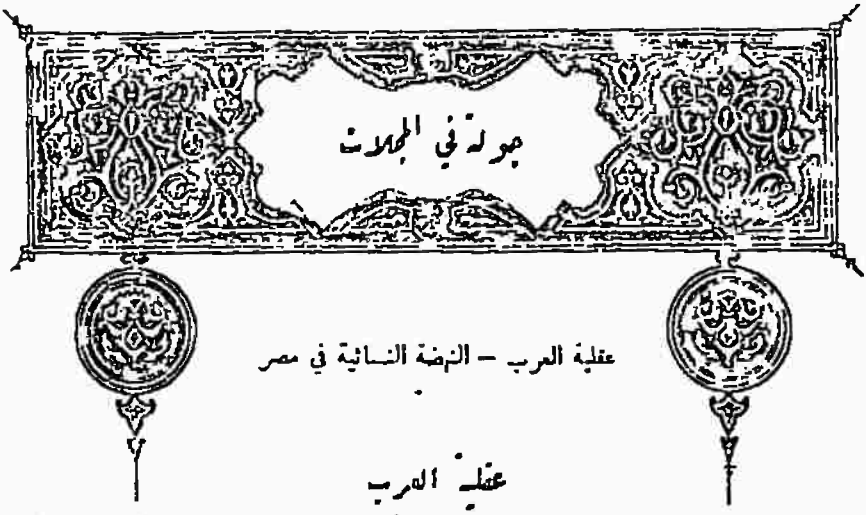

عقلية العرب – النهضة النسائية في مصر

عقلية العرب

من محاسن مجلة «الرسالة» المصرية الجديدة أنها، في تلميحها الى الظواهر الادبية لدى الشعوب الاجنبية، تدفع بعض ادبائنا الى التعمّق بدرس العقلية العربية وما انتجته في العلم والفن والادب، والى المقابلة بين هذه العقلية وغيرها من عقليات الشعوب المعروفة كاليونان والمصريين والفرس وغيرهم. وقد لمحت نظرنا، في احد الاجزاء الاخيرة، رسالة للاستاذ توفيق الحكيم، صاحب رواية «اهل الكهف» التي نشرها في عدد قادم من «المشرق»، حاول فيها ان يحدّد مركز الاغريق والهنود، والمصريين، والعرب من الحضارات العامّة، وميزة كلّ حضارة مستمدّة من عقلية الشعب الذي قام بها. فرافقه التوفيق في بعض نظراته، وكان بحاجة الى شيء من التحفّظ والاحتياط في البعض الآخر ولاسيما في ما خصّ الاغريق. على ان ما يستحقّ ذكرًا خاصًا في بحثه القيّم هو ذاك القسم الدقيق الذي صوّر فيه العقلية العربية وما تمتاز به من التفرّع في اللذة والاكتفاء بالجزئيات الى غير ذلك من المميّزات الدقيقة التي كان يشعر بها جميع المتصلين بادب العرب وفنهم وعلمهم، فلا يجدون لها هذا التعبير الشامل وهذا التعليل المعقول، حتى ان الاستاذ توفيق الحكيم فقال (الرسالة: العدد ١٠ في ٥ حزيران ١٩٣٣: ص٦-٧):

العرب أمة نشأت في قفر لم تعرفه امة غيرها، صحراء قفراء، قليل من الماء يثير الحرب والدماء، جهاد وكفاح لا ينقطعان في سبيل العيش والحياة، أمة لاقت الحرمان وجهاً لوجه، وما عرفت طيب الثمار وجري الانهار ورغد العيش ومعنى اللذة الّا في السير والاخبار، كان حتماً عليها ألا تحس المثل الاعلى في غير الحياة الهنيئة، والجنات الخضراء، والماء الجاري، والوان النعيم واللذائذ التي لا تنضب ولا تنتهي، امة بأسرها حلمت بلذة الحياة ولذة الشبع، فأعطاها ربها اللذة ومنحها الشبع، كل تفكير العرب وكل فن العرب في لذة الحس والمادة، لذة سريعة منهومة مختطفة اختطافاً، لان كل شيء عند العرب سرعة

وذهب واختطاف . عند الاغريق الحركة ، اى الحياة ، وعند العرب السرعة ، اي اللذة . لم تفتح امة العالم بأسرع من العرب ، ومر العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا من اطايبها اختطافاً ركضاً على ظهور الجياد ، كل شيء قد يحسونه الا عاطفة الاستقرار . وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم ارض ولا ماض ولا عمران ! دولة انشأتها الظروف ولم تنشئها الارض ، وحيث لا ارض فلا استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا ميتولوجيا ولا خيال واسع ولا تفكير عميق ولا احساس بالبناء ، لهذا السبب لم تعرف العرب البناء ، سواء في العمارة او في الادب او في النقد ، الاسلوب العربي في العمارة من اوهى اساليب العمارة التي عرفها تاريخ الفن ، واذا عاش اليوم فانما يعيش بالزخرف ، فن الزخرف العربي انقذ العمارة العربية ، ان العمارة العربية — الا في مصر — ما هي في رأيي سوى زخرف لا بناء ، فلا أعمدة هائلة ولا جبهة عريضة ولا وقفة قوية ولا بساطة عظيمة ولا روعة عميقة ، انما هي وشي كثير وجمال كجمال الحلي المرصع يهز البصر ولا فكر خلفه . أما فن الزخرف العربي فهو في الحق اجمل واعجب فن للزخرف خلده التاريخ . والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف ، كل شيء عند العرب زخرف . الادب نثر وشعر لا يقوم على البناء ، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ، انما هو وشي مرصع جميل يلذ الحس ، فسيفساء اللفظ والمعنى ، و « آرابسك » العبارات والجمل . كل مقامة للحريري كأنها باب لجامع المؤيد ، تقطيع هندسي بديع ، وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الانسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذاً بالبهرج الخلاب . كذلك الغناء العربي « آرابسك » صوتي ، فلا مجموعة اصوات متسقة البناء كما في « الديثيرامب » او « الاوركسترا » الاغريقية او كما في « الكورس » الجنائزي المصري ، ولا حتى مجرد صوت ينطلق حراً بسيطاً مستقيماً . انما هو صوت محمل بالوان المحسنات من تعاريج والحناءات والتواءات وتقاسيم كأنها « ستالاكتيتات » غرناطية ، لا يكاد يسمعه (القاضي الفاضل) حتى يستخفه الطرب ويضع نعله فوق رأسه ؛ كان هذا في العهد الاول للموسيقى اذ كانت عند جميع الشعوب بسيطة عارية تخرج من القلب تعبيراً عما في القلب ، او رمزاً

لفكرة من الافكار ، والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية، ولكن العرب لا يحبون الرموز ، ولا طاقة لهم بالفن الرمزي ، ولا يريدون الا التعبير المباشر بغير رموز ، والا الصلة المباشرة بالحس ، فجعلوا من الموسيقى لذة للاذن لا اكثر ولا اقل ، كما جعلوا العمارة لذة للعين لا اكثر ولا اقل ، ولقد حاول الفارابي فيما اذكر التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الاغريقية، وكان لا بد له من الاخفاق لاسباب قد اذكرها بعد ، كذلك التصوير العربي على جماله ودقته ليس الا مجرد تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات ولم يؤد لغير تلك الغاية « المنياتور » الفارسي . قد يكون للدين دخل في تأخر النحت والتصوير عند العرب ، غير اني اعتقد براءة الدين ، ان العرب كانوا دائماً ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبات طبائعهم ، لقد حرم الدين الشراب ، فاحلوا هم الشراب في قصور الخلفاء ، وما وصفت الخمر ولا مجالس الخمر في ادب امة باحسن مما وصفت في الادب العربي ، لا شيء في الارض ولا في السماء يستطيع ان يحول بينهم وبين اللذة . اما النحت او التصوير الكبير فليس في طبيعتهم، لان تلك فنون تتطلب فيمن يزاولها احساساً عميقاً بالتناسق العام مبناه التأمل الطويل والوعي الداخلي للكل في الجزء وللجزء في الكل ، وليس هذا عند العرب ، فهم لا يرون الا الجزء المنفصل وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد، لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق في الادب ، لانهم لا يحتاجون الا للذة الجزء واللحظة ، قليل من الكتب العربية في الادب تقوم على موضوع واحد متصل، انما اكثر الكتب كشاكيل في شتى الموضوعات تأخذ من كل شيء بطرف سريع : من حكمة واخلاق ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائد طبية ولذة جسدية، وحتى اذ يترجمون عن غيرهم يسقطون كل ادب قائم على البناء، فلم ينقلوا ملحمة واحدة ولا تراجيديا واحدة ولا قصة واحدة ، العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية في العمل الفني الكبير، لانها تستجل اللذة ، يكفيها بيت شعر واحد او حكمة واحدة او لفظ واحد او نغم واحد او زخرف واحد لتمتلئ طرباً واعجاباً ، لهذا كله قصر العرب وظيفة الفن على ما نرى من الترف الدنيوي واشباع لذات الحس ، حتى الحكمة ، وشعراء الحكمة كانوا يؤدون

عين الوظيفة : اشباع لذة المنطق ، والمنطق جال دنيوي ، ولا استغرب غضب نيتشه على ايروبيد لاسرافه في هذا المنطق على حساب الموسيقى ، من المستحيل اذن ان نرى في الحضارة العربية كلها أى ميل لشؤون الروح والفكر بالمعنى الذي تفهمه مصر والهند من كلمتي الروح والفكر . ان العرب امة عجيبة ، تحقق حلمها في هذه الحياة ، فتشبثت به تشبث المحروم ، وابت الا ان تروى ظمأها من الحياة وأن تعب من لذاتها عباً قبل أن يزول الحلم وتعود الى شقاء الصحراء ، وقد كان.

النهضة النسائية في مصر

لا تزال فكرة قاسم امين تسير بين الشعب المصري ، متقدمة بخطىً بطيئة ولكنها ثابتة ، فتعمل على تحرير المرأة المسلمة شيئاً فشيئاً . وان من يقابل حالة النساء اليوم في القطر المجاور بحالتهن قبل الحرب يتحقق التقدم المحسوس الذي ادّت اليه الجمعيات النسوية ، ومنها « الاتحاد النسائي » الذي اسسته السيدة هدى هانم شعراوي . وقد زارها مؤخراً الاستاذ سامي الكيالي ، صاحب مجلة « الحديث » الحلبية ، فلخّص من اقوالها ما يلي ، دالاً على تقدم النهضة المذكورة (الحديث ، حزيران ، ص ٤٥٤) :

واذ تسأل هدى هانم عن الاعمال التي قام بها « الاتحاد النسائي » في مصر خلال السنوات العشر تجيبك بصراحتها الواضحة وقلبها مطمئن : لقد وفقنا الى الغاء الحجاب الذي كان يحول بيننا وبين الاشتراك في الحياة العامة ، والى تحديد السادسة عشرة لزواج الفتيات اللواتي كان يزوجهن اباؤهن فيما مضى ومن لم يتجاوزن بعد العاشرة ، مع فتح ابواب المدارس الثانوية والعالية امام الفتاة المصرية مع انها حتى عام ١٩١٤ كانت محرومة من الالتحاق بالمدارس الثانوية والعالية وكان حظها من الحياة التعليم الابتدائي فقط . والجامعة المصرية تضم اليوم في كلياتها الاربع ما يقرب من ٤٠ تلميذة عدا البعثات النسوية التي سافرت الى انكلترة وفرنسة لاتمام دراساتهن العالية في مختلف نواحي التفكير . وتزيد على ما تقدّم بان « الاتحاد النسائي » قد ظفر بعدة اصلاحات تتعلق باستطاعة المرأة المطالبة بالطلاق وبتحديد سلطة الرجل في توقيع بين الطلاق ، وان تحتفظ الام المطلقة بطفلها ان كان ذكراً لمدة ٩ سنوات بدلاً من ٧ سنوات وان كانت أنثى لمدة ١١ سنة بدلاً من ٩ .